مرض اسمه... تلقّي السرديات العبرية

يحيى دبوق



بين التصعيد الإقليمي وتدفّق السرديات الإعلاميـة الإسـرائيلية إلى الفضـاء العـربي، تتزايد الحاجة إلى قراءة نقدية للإعلام العبري بوصفه أداةً سياسية وأمنيـة، لا مجـرد مصدر معلومات. كيـف تُصـنع هـذه الروايـات؟ ولمـاذا تتحـوّل عناوينهـا المثـيرة إلى «حقائق» متداولة عربياً رغم الرقابة العسكرية وآليات التوجيه التي تحكم إنتاجها؟

عندما يتصفح المتابع للشأن الإسرائيلي عنوان مقالة المحرر العسكري في صـحيفة «هآرتس» أول من أمس: «إسرائيل تتصرف وكأن القرار قد اتُّخذ بالفعل لمهاجمـة إيران قريباً»، يتوقع بطبيعة الحـال أن يجـد في المتن تحليلاً استقصـائياً يكشـف عن تحركات عسكرية ملموسة، أو قرارات حكومية استثنائية، أو مؤشرات ميدانيـة تنـذر بحرب وشيكة، أو تسريبات عن قرارات تلقتها إسرائيل من أميركا بخصوص الحـرب وموعد استئنافها.

إلا أن المفـاجئ أن المقالـة نفسـها تخلـو تمامـاً من أي دليـل يـدعم هـذا الادعـاء الدرامي. وهذه الفجـوة الصـارخة بين العنـوان والمحتـوى، ليسـت زلـة قلم لكـاتب بعينه، بل عرض متكرر لنمط بنيوي، متجذر في الإعلام العبري اليوم.

الخطر الحقيقي لا يكمن في إنتاج هذه السرديات، بقدر ما يكمن الخطر في طريقة استهلاكها. فالكثير من المحللين ووسائل الإعلام العربية والإقليمية يتعاملون مع مثل هذه المقالات كـ«حقائق مبرمة»، ويعيدون تدويرها من دون تمحيص أو قراءة نقدية لسياقها الداخلي ودوافعها السياسية. وهذا الاستسهال التحليلي يُشكّل مرضاً مزمناً في التعامل مـع المنتج الإعلامي الإسـرائيلي، رغم الإقـرار الواضـح بآليـات التوجيـه والرقابـة العسـكرية الـتي تصـيغ هـذه السـرديات من أعلى، وتوجههـا نحـو أهـداف محددة، قد لا تعكس واقعاً ميدانياً أو قراراً فعلياً.

تستدعي هذه الظاهرة وقفة تحليليـة في ثلاث اتجاهـات: كيـف يُنتج الإعلام العـبري عناوينه المثيرة؟ ولماذا تتعامل الأطراف الخارجية (العربية) معها بوصفها مؤشـرات استراتيجية بدلاً من كونهـا أدوات إدارة وتوجيـه إدراك للـذات وللآخـر؟ وكيـف يمكن تفكيك هذه السرديات، قبل سقوطها في فخ التلقي الأحادي بلا تمحيص ولا دراسة؟

خلف هذه الظاهرة، في الإعلام العبري، عوامل هيكلية وبنيوية متشابكة:

أولاً: الطبيعة الأمنية للمجتمع الإسرائيلي. إذ يعمل الإعلام العبري، كتّاباً ومؤسسات، في العموم الأغلب «مضخمات» للرواية الرسمية كما تـرددهم، مقابـل حـد آخـر هـو «النقد التكـتيكي» الـذي يركـز على الكفـاءة التنفيذيـة، وليس التقريريـة، في تجنب واضـح جـداً للأسـئلة الاسـتراتيجية الجذريـة الـتي قـد تُفسَّـر على أنهـا «تقـويض للمعنويات» أو «إضـرار بـالأمن القـومي»، تحت سـقف المقولـة العبريـة الشـهيرة: «نحن في حـرب» الـتي تسـتخدم غالبـاً مـبرراً لـرفض أي اعـتراض أو تسـاؤل، أو المقولة الشهيرة الأخرى «دعوا الجيش يعمل».

ثانيـاً: الاعتمـاد على المصـادر العسـكرية. معظم «المحللين الأمنـيين» في الإعلام العـبري هم ضـباط سـابقون في «الجيش» الإسـرائيلي، وتحليلاتهم تميـل للسـرد الوصـفي لمـا «يُسـمح بنشـره»، وتتجنّب الأسـئلة الحرجـة الـتي من شـأنها المسّ بالمؤسسة التي كانوا جزءاً منها.

ثالثاً: الاستقطاب السياسي الداخلي. من الواضح أنّ الإعلام العبري بات حاليـاً أكـثر من الماضـي، أداةً في الصـراع بين أصـحاب القـرار والحكم، وبين المعارضـة ومـا بينهما. أما النتيجة؟ فهي عناوين مثيرة، ومحتوى «آمن» لا يغضب جهـة مـؤثرة، مـع التركيز على انتقاد الكفاءة الشخصية للسياسيين، بدلاً من نقد السياسات ذاتها.

رابعــاً: تفــرض إســرائيل رقابــة عســكرية صــارمة على الإعلام أثنــاء الحــروب والمواجهات، ما يعني أنّها تفرض عليها رقابـةً صـارمة طـوال الـوقت، لأنّ «شـمس الحروب لا غيب عنها»، مـا يعـني منـع نشـر تفاصـيل عمليـات مـا لم يـأذن الـرقيب العسكري بها، وضمن رواية موجهة وموحدة تعطى للإعلام عبر إحاطـات عامـة. أمـا مخالفة ما يمنع نشره، فقد تصل العقوبات فيها إلى غرامات باهظة، وسحب رخصـة الاتصال بالضباط والناطقية العسـكرية ودخـول أمـاكن تلقي المعلومـات العسـكرية والأمنية.

خامساً: تنشط في الكيان الرقابة العسكرية في مستويين اثنين: رقابة رسمية تفعل بشـكل مسـبق في كثـير من الأحيـان من الـرقيب العسـكري، تجـاه سلسـلة من المواضيع المدرجة والمحدثة تباعاً في جداول توضع أمام الكتاب كي لا يحيدوا عنهـا، ومن بينها أي مقال أو تقرير يتعلق مثلاً بـ «حزب الله» أو المواجهات أو العمليات أو كشـف توجهـات أو تقـديرات أو وسـائل قتاليـة، وصـولاً إلى مـا يمكن أن «يحبـط الجمهور»، أو يعلي من شـأن الأعـداء ويعـزز ثقتهم بأنفسـهم، سـواء عـبر تقريـر أو مقالة رأي، أو صورة حية، أو مشهد لواقعة أو اشتباك.

الرقابــة من النــوع الثــاني، هي الرقابــة اللاحقــة الــتي تتســع لكــل المواضــيع ذات المضمون الأمني أو ما يدور في «المنطقة الرمادية» بين الأمني وغير الأمـني، وفي العادة تتعلق بتقييم لاحق على ما ينشر، وليس مسبقاً، خصوصـاً في حـال كـان متن المقالة يتعلق بموضوعات غير مدرجة في جداول المنع والرقابة المسبقين.

سادساً: الاتجاه الثاني في الرقابـة، وهـو الأكـثر حضـوراً وتـأثيراً، فهـو الرقابـة الـتي يمارسها المحـررون والكتـاب على أنفسـهم: «الرقابـة الذاتيـة»، الـتي تتطـرّف في تجنّب الكشف عن تفاصيل عملياتية أو تقديم نقد استراتيجي جذري، قد يُفسَّـر على أنه تجاوز للخطـوط الحمـر. وعمليـاً، تـنزع هـذه الرقابـة، تمامـاً المهنيـة عن الإعلام العبري، وتحوله إلى ناطق باسم «الجيش» الإسـرائيلي والسـلطات صـاحبة القـرار السياسي والأمني.

خلال الحرب الحالية، تكثر التقارير العبرية، التي تنقل عن الآخر، وما تسميه «وفقــاً لتقـارير أجنبيـة» كمـا تكـثر الترجمـات عن الإعلام الأمـيركي، والغـربي عمومـاً، في مواضيع يمنـع الـرقيب العسـكري من تـداولها والحـديث عنهـا مباشـرة، فيصـار إلى ترجمتها عن مصادر غير إسرائيلية، ويعـد خـارج عن صـلاحيات الرقابـة. وهـو دليـل، موضوعي وشبه مباشر، على سطوة الرقابة المسبقة واللاحقة، وكذلك الذاتيـة، في الإعلام الإسرائيلي، بما لا يمكن قياسه بأي من الأنظمة القمعية حول العالم.

وتكفي الإشارة، للدلالة، إلى واحدة من أهم الوقـائع والحقـائق: في حـال قـرّر أحـد الكتاب، كتابة مقالة أو تقرير أو حتى تحليل، يتعلـق بــ «حـزب اللـه»، فـإنّ الرقابـة على تقارير مماثلة تكون مسبقة.

وكما يتبين من التماسات عرضت على القضاء الإسرائيلي، ومكنت من فهم محتـوى الآلية المتبعة، فإنّ الرقيب يطلب حذف هذه العبـارة أو الجملـة أو الفكـرة، ويطلب الاستعاضة عنها بعبارة أو جملة أو فكرة مغايرة تماماً وقد تكون نقيضـة. كمـا يطلب تنسيق العمل ليكون متوافقاً مع أعمال أخرى، جـرى طلبهـا و«فرضـها» على كتّـاب آخرين.

وهذه عينة من عينات. ما يشار إليه هنا، هـو جـزء من كـل. وهـو مـا يجب أن يكـون حاضراً لدى قراءة وترجمة وإعادة إنتاج ما يصـدر في الإعلام العـبري. وكلمـا كـانت التقارير أكـثر «دسـامةً» وأكـثر «عمقـاً» و«كشـفاً»، يجب حينهـا أن يسـأل القـارئ نفسه: ما هو الهدف من هذه الدسامة وهـذا العمـق وهـذا الكشـف؟ ولمـاذا تسـمح الرقابة بنشر تقارير مماثلة؟، وأيضاً، كيف يسمح الصحافي العبري لنفسه بنشرها؟

من المسيء، للذات وللرأي العام، وكـل من يسـتهلك مـا ينشـر في وسـائل الإعلام العربية، بما يشمل وسائل الإعلام اللبنانية المتلقفة لما يرد من تل أبيب، أن تصادف تقـارير مسـيئة جـداً للوسـيلة الإعلاميـة نفسـها، ولكتـاب التقـارير، وللقـارئ، مثـل: «ذكرت صحيفة «معاريف» العبرية نقلاً عن صحيفة «الأخبار» أنّ...».

21/05/2026